القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق إليه الريبة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه ، وإن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عُنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم .

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ، ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها .

حكي عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم ، المعتقدون برسالاتهم

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرّفوا بالتأويل فى كتبهم ، وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حدّ ما قرّره ، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح الذى أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم .

ثم جاء بعد ذلك[1] بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم ، انصرافها فى السبيل الأمم[2] .

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادّة فى الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقرّ الإذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه ، وتكذيبه فى الإخبار عن الله ، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتدّ جميع أولئك فى مقاومته وانهالوا بقواهم عليه ، استكباراً عن الخضوع له ، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطّئ آراءهم ، ويسفّه أحلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى

---

(١) هذه البعدية نوعية لا زمانية .

(٢) الأمم بالفتح القريب .

ذلك كله إلا تحدّيهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر[١] سوَر من مثله ، وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء * ما شاءوا ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة !

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم فى التعدّى ، أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلىّ على جميع الأحكام . أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمىّ أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى ، على لسان الرسول الأمى صلوات الله عليه ؟

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر فى قوله : « ٣٠ : ٢ غلبت الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. فى بضع سنين » وكالوعد الصريح فى قوله : « ٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية ، وقد تحقق جميع ذلك ، وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته .

ومن الكلام على ** الغيب فيه ما جاء فى تحدّى العرب به ،

---

(١) كان التحدى بعشر سور مثله ، ردًّا على الذين قالوا « افتراه » ولذلك وصفها بقوله (مفتريات) .

* والفصحاء البلغاء .

** عن العيب .

واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها ، وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها ، ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى عادة عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحدّاهم به ، ليس قضاء بشريًا ، ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوّة مثل قوّته[1] ، وإنما ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير ، هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه .

يقول واهم : إن العجز حجة على من عجز فإن العجز هو حجة الأفحام* والزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات** عنده فيفحم ، ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله إلخ . وادعو شهداء كم من دون الله إن كنتم صادقين » ، « فإن لم تفعلوا – ولن تفعلوا – فاتقوا النار » إلخ . فالإخبار بالغيب فيه قوله : « ولن تفعلوا » وكان هذا بعد التصريح بعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله .

* فإن العجز هى حجة الإفحام .

** وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات .

وهو وهم يضمحل بما قدّمناه من البيان ، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبُعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا « القوى البشرية » لأنه جاء بلسان عربى وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوّة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم فى العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم ، فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً يبلغ من قوّة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك ، مع التماثل بين النبي وبينهم فى النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة ، دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوّة ، مما يدل على الثقة من أمره ، مع ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن ، وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ، ولا يتناوله التبديل ، أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، رسول الله إلى خلقه ، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة

متبعة ، وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء ، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك .

بقى علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامى وما دعا إليه على وجه الإجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة ، والسر فى كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

الدين الإسلامى أو الإسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع ، وإنى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندى فيما أقول إلا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين .

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون : « قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد » ، وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شىء منها ، وإن

ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده [١] بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبديل ، ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدّماته إلى حُكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح ، بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلاً ، وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون [٢] وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص ،وبتيسير خاص ، فى موضع خاص ، لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله فى شىء من هذا إلا ببرهان كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « ١٦ : ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » [٣] — والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان

---

(١) يعنى الأنبياء .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : (٢١ : ٢٦ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه ، بل عباد مكرمون) .

(٣) قال المؤلف فى الدرس : لعل فى القرآن تعبر دائماً عن الاستعداد ، أى جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر ، أو قال : ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها ، أى وهذا ما خلقت لأجله بقرينة لا تعلمون شيئاً ، قال ، والأفئدة العقول أين كان محلها سواء أكان الدماغ أم القلب .

الإنعام بها لأجله ، دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرزفينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أوعليها .

وأما ما تتحير فيه مداركنا ، وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها ، أو ناصر يمدّها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرفه * من القوى المسخرة لها . وكان لا بد من الخضوع والرجوع إليه والاستعانة به — فذلك إنما يردّ إلى الله وحده ، فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه ، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ، ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل ، أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة — تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم(١) وارتفع شأن الإنسان ، وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة ، بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض ، وقاهر الناس أجمعين وأبيح (٢) لكل

* ما نعرف .

(١) ذكر المؤلف فى الدرس هنا مفاسد المنتسبين إلى طرق الصوفية واختلافهم .

(٢) عبر بأبيح للإشارة إلى أن ذلك كان محظوراً عند الأمم السابقة فلم يكن يباح لأحد=

أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم : « ٦ : ٧٩ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » ، وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « ٦ : ١٦٢ ، ١٦٣ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى[1] لله رب العالمين.لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره ، سواء كانت إرادة بشرية[2] ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية – أو أنها – هى كإرادة الرؤساء والمسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الأسرار ، ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله ، الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الإشقاء والإسعاد ، وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين . صار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حرًّا من العبودية لكل ما سواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر ، لا علىّ فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا

= أن يتوجه إلى الله بدون واسطة الرئيس الدينى فيكونوا حنفاء ، والحنيف المائل عن الباطل إلى الحق الملتزم له ، فمن يتوجه إلى غير الله ليقربه إلى الله فليس بحنيف .

(١) أى أن صلاتى وجميع عبادتى وحياتى وشئونها ومماتى ، وما بعده ، كل ذلك لله وحده ، لا أتوجه فيه إلى مرضاة غيره ، ولا أستعين أحداً على شىء منه استعانة معنوية ، بل إياه أستعين مهتدياً بما شرعه من الدين .

(٢) قال المؤلف : كإرادة القديسين والكهنة الذين يأتى ذكرهم مرتباً .

بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقرّبهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين ، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين ، والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدى العالة ، وأهل البطالة ، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته ، لا بعمله وخدمته .

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرّر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت : « ٩٩ : ٧ ، ٨ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره » ، « ٥٣ : ٣٩ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارًّا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أوما تعدّى ضرره إلى غيره ، وحدّد له فى ذلك الحدود العامة ، بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لهـا عقبة تتعثر بها ، اللهم إلا حقاً محترماً تصطدم به .

أنحى الإسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر ، فبدّدت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم[1] .

(١) ذكر المؤلف منها فى الدرس ثلاثاً : ١ – احترام المرء لآبائه ومربيه . ٢ – اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين . ٣ – الحذر من إنكار الناس المحفين به ، واعتراضهم عليه إذا حاول أن يخرج عما هم عليه ، أى فمن لم يحترم نفسه واستقلال فكره ، ويمرن نفسه على الأخذ بما يعتقد أنه الحق ، وإن خالف الآباء والمعلمين والأحياء والأموات وغير المعصومين من الخطأ فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد وسيأتى فى كلامه ما يهدم تلك القواعد والأركان .

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق ، خلصت إليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « ثم فإن الليل حالك ، والطريق وعرة ، والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والأزواد قليلة » ، علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام – أعلام الكون ودلائل الحوادث – وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث هادون .

صرّح فى وصف أهل الحق بأنهم « ٣٩ : ١٨ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ، ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسْمياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ، ما لم يكن لمن تقدّمه من أسلافه وآبائه ، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب

السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما اقترفه سلفهم « ٦ : ١١ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وإن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب .

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم : « ٣١ : ٢١ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ، « ٤٣ : ٢٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، وردّه إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته ، مع الخضوع فى ذلك لله ° وحده والوقوف عند شريعته ، ولا حدّ للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتدّ تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تمّ للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما ، هما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له إنسانيته ، واستعدّ لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فُطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية فى أوربا إنما قامت على هذين الأصلين ، فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقاً فى تصريف اختيارهم ، وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من

° مع الخضوع مع ذلك لله وحده .

ميلاد المسيح ، وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ، ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان .

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضناً به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب ، لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمى إليه ، ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلاً ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف[1] فذهبوا بحكمة الإرسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا ، فقال « ٢ : ٧٨ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون » ، « ٦٢ : ٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » .

أما الأمانىّ ففسرت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه ، وإذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه ،

---

(١) أى ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند ألفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده ، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين ، مصداقاً لما أنبأ به الرسول (ص) فى قوله « لتتبعن سنن من كان قبلكم » وأما تعبدنا بالقرآن فهو لأجل تدبره ، والاهتداء به ، ثم لأجل حفظه وتبليغه فهما مقصدان .

وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة ، وظنوه ديناً ، وإذا عنّ لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله ، « ٢ : ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » ، وأما الذين قال : إنهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حُملوها(١) فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ، ولم تسمُ عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام ، فعمست عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بإنزالها ، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به ، مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب ، وقصم الظهر وانبهار النفس ، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سبباً فى إسعادهم وهو التنزيل والشريعة ، أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة .

وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين – مما هو منتشر فى القرآن العزيز – فَرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرّر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين ، لا تختص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات .

---

(١) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم : كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى – كما حكاه القرآن « فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » .

جاء الإسلام والناس شيع فى الدين وإن كانوا إلا قليلاً فى جانب عن اليقين ، يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون ، فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون . فُرقة وتخالف وشغب ، يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب . أنكر الإسلام ذلك كله وصرّح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد ، قال الله : « ٣ : ١٩ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » « ٣ : ٦٧ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » ، « ٤٢ : ١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » ، « ٣ : ٦٤ قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات ، والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه ، معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته .

نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر[2] وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التى

---

(١) أى بمعزل .

(٢) قوله : مما هو إلخ صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها والسياق استئناف =

أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منه ، والعزائم إلى العمل به ، وإن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذى يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وإن اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبعد عن سننه ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشر به ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها ، وسار الكافة فى مراشدهم إخواناً بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين .

وأما صور العبادات ، وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، إلى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ، ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النموّ قائماً على ما قررته الفطرة الإلهية فى شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف

= لبيان وحدة الدين المجملة فيما قبله ، فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد ، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج ، المنصوص فى قوله تعالى ٥ : ٤٨ (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) مع الإلمام بحكمة ذلك – وهو من الحقائق التى لم يسبقه إليها سابق .

فيها ، وإن اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرّع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا .

ترقى الأديان بترقى الإنسان

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة فى طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه ، فى هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان ، أو يُرقى إليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ، وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلىّ الغاية ، وإن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم إلى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه[1] .

(١) هذه صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية وما يليها فهو صفة المسيحية .

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت ، وارتفعت وانحطت وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاماً ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ووجدت الأنفس بنفث الحوادث ، ولقن الكوارث ، شعوراً أدق من الحس وأدخل فى الوجدان ، لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أوتذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ويناجي المراحم ويستعطف الأهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسنّ للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه ، وما دعاهم إليه ، فلاقى من تعلق النفوس ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فهبّ القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما فى العقائد فتفرّقوا شيعاً ، أحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان

العقول من النظر فيه ، بل وفى غيره من دقائق الأكوان بل والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة فصرّحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جدّ فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوّة ، وأفضى الغلوّ فى ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنسانى ، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين ، للإلزام ببعض قضايا الدين ، فتقوّض الأصل ، وتخرّمت العلائق بين الأهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام .

* * *

كانت سن الاجتماع البشرى قد بلغت * بالإنسان (١) أشده ، وأعدّته الحوادث الماضية إلى رشده ، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية ، وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ، ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح ، إنما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وأن الله لا ينظر إلى

---

* كان سن الاجتماع قد بلغ .

(١) ذكر الأستاذ الإمام ضمير السن هنا وفى تفسير جزء عم سهواً ، ثم إنه تنبه لكون السن مؤنثة فأمر بتصحيحها فى جزء عم بعد طبعه ونسى تصحيحها هنا فصححناها اتباعاً لتصحيحه هناك وإن كان التأنيث مجازاً .

الصور ، ولكن ينظر إلى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر ، كما أوجب طهارة الباطن ، وعدّ كلا الأمرين طهراً مطلوباً ، وجعل روح العبادة الإخلاص ، وأن ما فرض من الأعمال ، إنما هو لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق * ٢٩ : ٤٥ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» ، « ٧٠ : ١٩ — ٢٢ إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين» ، ورفع الغنىّ الشاكر ، إلى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الإنسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل ، أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول إلى خير العقبى ، إلا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت إلى أهل العناد ، فقال لهم : « ٢ : ١١١ و ٢٧ : ٦٤ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام ، والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوّج من أهل الكتاب وسوّغ مواكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن .

ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة إنما تكون بعد التحابّ بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف

* من التطبع بصالح الملكات .

وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه قال تعالى ٣٠ : ٢١ « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ، ونص على أن لهم مالنا ، وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدّمونه من مالهم ونهى بعدأداء الجزية * عن كل إكراه فى الدين[1] ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله : « ٥ : ١٠٥ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » فعليهم الدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أىّ ضرب من ضروب القوّة فى الحمل على الإسلام ، فإن نوره جدير أن يخترق القلوب ، وليست الآية فى الأمر بالمعروف بين المسلمين فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به ، ولو أريد ذلك لكان التعبير « على كل كل واحد منكم بنفسه » ، لا « عليكم أنفسكم » ، كما هو ظاهر لكل عربى ، كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم إلى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى فى الجنس** والفصل والخاصة . وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعدّه الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون

* ونهى بعد ذلك .

(١) إن النهى عن الإكراه فى الدين نزل قبل سورة براءة التى شرع فيها أخذ الجزية ، فالإكراه فى الدين تنوع فى الإسلام مطلقاً .

** بالجنس .

من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم (١) ، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً .

هذه عبادات الإسلام على مافى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه ، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة ، فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهى الذى يغمر القوّة البشرية ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذى له النفوس وليس فيها شىء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات ، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير ، وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير .

وأما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها « ٢ : ١٨٣ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، وأما أعمال الحج فتذكير للإنسان بأوّليات حاجاته ، وتعهد له بتمثيل المساواة – بين أفراده – ولو فى العمر مرة ، ويرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الأبدان متجردين عن المخيط ° وحّدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك

---

(١) لا يزال هذا الامتياز موجوداً عند الأمم التى تدعى أنها راقية ومنها أمريكا .

° مجردين عن آثار الصنعة .

مع استبقائهم [١] فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام ، وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين * ، واستقرار يقينهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع ، وهذا الإذعان الكريم فى كل عمل من أعمال العبادات الإسلامية مقرون بما يدل على التنزيه وتقديس الله عما يوهم التشبيه ** أين هذا كله مما نجد فى عبادات أقوام آخرين ، يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد .

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الإنسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم ، إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدّرها الله فى علمه الأزلى ، لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية ، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيا ذكره عندرؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله »[٢] وفيه

---

* حذف ما تحته خط .

** وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل (الله أكبر) .

واستبدل بها هذه العبارة : وهم مع هذا الإذعان الكريم فى كل عمل من أعمال العبادات الإسلامية مقرون بما يدل على التنزيه وتقديس الله عما يوهم التشبيه .

(١) لعل الكلمة استباقهم أو تسابقهم .

(٢) كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن النبى (ص) فظن بعض الناس أنها كسفت لموته فقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم والمصائب التى يرزؤون بها ، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما ، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ، فكثير منها كالثروة والجاه والقوّة والبنين ، أو الفقر والضعة والضعف والفقد ربما يكون كاسبها * أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً لهم حتى يتلقاهم ما أعدّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى ، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم « ٢ : ١٥٦ إنا لله وإنا إليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل ، مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة ، كارتباط الفقر بالإسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم ، وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر .

وأما شأن الأمم فليس على ذلك ، فإن الروح الذى أودعه الله جميع

---

* قد لا يكون كاسبها .

شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوّة ، والتعاون على البر ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل ، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة « ٣ : ١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » ، ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها : يزيد الله النعم بقوّته ، وينقصها بضعفه ، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره ، وتبعته الراحة إلى مقره ، واستبدل الله عزة القوم بالذل[1] وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون « ١٧ : ١٦ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم ، فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر ، والصبر والشكر « ١٣ : ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، « ٣٣ : ٦٢ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه : « اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة » .

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه

---

(١) الباء فى الاستبدال تدخل على المتروك .

بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً .

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال : « ٩ : ١٢٢ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ثم فرض ذلك فى قوله : « ٣ : ١٠٤ – ١٠٩ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسوّد وجوه ، فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعاملين . ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور» .

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الأمّارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة ، فقال : « ٣ : ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، فقدّم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان فى هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريفاً لتلك الفريضة وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض

بل تنبيهاً على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره ، ثم شد بالإنكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال : « ٥ : ٧٨ و ٧٩ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ، فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه .

* * *

فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقًّا معلوماً يفيض به الغنى على الفقير* سدًّا لحاجة المعدم ، وتفريجاً لكربة الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، ولم يحث على شىء حثه على الإنفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان ، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم ، فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين ، وأىّ دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ، « ٥٧ : ٢١ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

أغلق الإسلام بابى الشر ، وسدّ ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا ، تحريماً لا هوادة فيه .

لم يدع الإسلام بعد ما قررنا أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أمًّا من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام

* يفيض به الآخرون على الأولين .

إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا ، حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر ، ما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل ، وسوقها فى سبل السعى ، ومن يتلُ القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى .

هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا قد تبين الرشد من الغى ، ولم يبق إلا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين .

لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانتهت الرسالات برسالته ، كما صرح بذلك الكتاب ، وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده ، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدّث عن الله بشرع ، أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب ، « ٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » .

انتشار الإسلام
بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب ، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان ، ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الإيذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعُذب المستجيبون له وحُرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدّماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب؛ وهى ذوب ما فسد من طباعهم ، فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الأطباء الحاذقين : « ٨ : ٣٧ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل

الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون » .

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء ، والفقير للأغنياء ، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل ، والرشد فى ظلمات الأضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أُخر كانت تدعو إليها ، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحاً ولا أنالهم القهر فلاحاً .

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزئوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه وبعث إليهم البعوث فى حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلباً للأمن وإبلاغاً للدعوة ، فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الأمم فى قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح ، عطفوا على المغلوبين ، بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرهم آمنين مطمئنين ونشروا حمايتهم ، يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أنّ الإسلام كان يعدّ مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً ، عندما كان يعدّها الأوربيون ضعة وضعفاً .

رفع الإسلام ما ثقل من (الإتاوات) ، وردّ الأموال المسلوبة إلى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها . ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم .

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعى بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا .

وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الإسلام ، لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صدّ عن سبيل الدين لا محالة * ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزيز مثل هؤلاء العمال[1] .

* زيادة بعد كلمة لا محالة هذه العبارة .

(١) شكا إليه عامله بمصر ذلك فأجابه : أن محمداً (ص) بعث هادياً ولم يبعث جابياً .

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى إسبانيا .

اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوربا فراراً منهم بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئاً من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً ، وبذلوا فى خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟

ظهور الإسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادّة القويمة — حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبييه إبراهيم وإسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل « ٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم » * وإن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها ، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء على العناد فى مجاحدته ، فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

* بعد اسم إبراهيم وإسماعيل هذه الزيادة .

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه ، فوجدوا لطفاً ورحمة ، وخيراً ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الإيمان الصادق ، ولا عمل تضعف على احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق ، رأوا أن الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ، ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات ، وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية ، وخلصت السريرة ، فإذا نزت شهوة أو غلب هوى ، كان الغفران الإلهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة .

تبدّت لهم سذاجة الدين عندما قرءوا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه إليهم ، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه ، وما تكفى جولة نظر فى الوصول إلى علمه ، فتراموا إليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه .

كانت الأمم تطلب عقلاً فى دين فوافاها ، وتتطلع إلى عدل فى إيمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها ، والمبادرة إلى رغيبتها ؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين ، فجاء دين يحدد الحقوق ، ويسوّى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسوّغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة

لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ، ولكن ليوسع به مسجداً ، فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه.(١) ، عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو ؟ ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما .

هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه ، وردّ إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الإسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ، ثم لا يكون إلا طائفاً يحل ، ثم يرتحل ، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الإسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم ، لم يقف الإسلام فى انتشاره عند حد ، خصوصاً فى الصين ، وفى أفريقيا ، ولم يخلُ زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع إليه ، لا سيف وراءها ، ولا داعى أمامها ، إنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه .

---

(١) وقع هذا لامرأة قبطية مع أمير مصر وفاتحها عمرو بن العاص والخليفة الذى أشكاها منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) .

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامى وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب ديناً ترتاد منه ما هو أمس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى إلى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً ، وإلى العقول مخلصاً بدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة ، والأوقات الطويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه .

هذا كان حال الإسلام فى سذاجته الأولى ، وطهارته التى أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم .

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته .

سبحانك هذا بهتان عظيم ! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة فى جملته ، وإن وقع اختلاف فى تفصيله ، وإنما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم ، وكفاً للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالإسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه .

لو كان السيف ينشر ديناً [١] فقد عمل فى الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة ، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ، وبلوغ القوّة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجئ الإسلام سبعة أجيال أو يزيد ، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسْب عقائد البشر مبلغ الإسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده ، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الأفئدة ،وفصاحة تتدفق عن الألسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين ، إن فى ذلك لآيات للمستيقنين .

* * *

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين ، سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية ، أبعد بلاد الله عن المدنية ، فاض حتى شمَلها فجمع شمْلها فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مدّه حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها ، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ما كان قد استحجر من الأرواح ، فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو من غَلَب « بالتحريك » قلنا : تلك سنة الله فى الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى ، قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه .

---

(١) هذا بيان ما فعله الإفرنج من نشر النصرانية بالإكراه وقهر القوة العسكرية قبل الإسلام وبعده وهو الذى تهموا به المسلمين من بعد زوراً وبهتاناً .

إذا ساق الله ربيعاً إلى أرض جدبة ليحيي ميتها ، وينقع غلتها ، وينمى فيها ، أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الإسلام على الديار التى بلغها أهله (١) ، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يتزحزح إلى ما وراءه * ، لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم ، فعمهم منه ما عم غيرهم جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم * * .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة (٢) لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا إلى ديار المسلمين * * * وكانت فيهم بقية من روح

---

(١) بيان لما فعله الإسلام من هداية شعوب الأعاجم فى أثر بيان ما فعله العرب .

* وكاد يتزحزح إلى ما وراء .

* * فعاجوا بسعادتهم .

(٢) بيان للحروب الصليبية لإبادة الإسلام من الشرق .

* * * وزحفوا على ديار المسلمين .

الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية ، وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها .

لِمَ جاءوا ؟ وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤون من سكان الشرق ، أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية ، جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة وعلية النّاس * جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدّروه بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين ، وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها ، تنظر فى أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالفين وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام ، لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادى عليه ، ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها ، هذا إلى ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ، ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل ، والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين ، والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى

---

* وذوى الثروة والأعلياء .

ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته ، وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلاً ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح فى العقائد (١) إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف معنى ، إلا فى صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوربا تَفتَكّ من أسرها ، وتصلح من شئونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الإسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة .

هذا طلّ من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم فباءوا بوضوح شأنهم ، وضعضعة سلطانهم ، وما بيناه فى شأن الإسلام ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم (٢) وإلى الله عاقبة الأمور .

---

(١) هم طائفة الموحدين وأكثرهم من الإنجليز والأمريكان .

(٢) قد أورد المؤلف الشواهد على ذلك فى كتابه (الإسلام والنصرانية) .

إيراد سهل الإيراد

يقول قائلون إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق وقال كتابه : « ٦ : ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء » ، فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الإسلام موحداً فما بال المسلمين عدّدوا ، إذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدّون ذلك فصلاً من فصول التوحيد ؟

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان ، وأطلق له العنان ، يجول فى ضمائرها بما يسعه الإمكان ، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان ، فما بالهم قنعوا باليسير . وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ، ظناً منه أنه قد يرضى الله بالجهل ، وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟

ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم هم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجدّ والعمل ، أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ؟

ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين ما دعاهم إليه فتركوه .

إذا كان الإسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟

إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه ، فما بال قرّاء القرآن لا يقرءونه إلا تغنياً ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنياً ؟

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدّوهما إلى أغلال أى أغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

إذا كان الدين فى تشوّف إلى حرية الأرقاء ، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار ؟

إذا كان الإسلام يعدّ من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرّم الخديعة ، ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟

إذا كان قد حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن ، والنفس والبدن ؟

إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم وإن[1] الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وأنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن

---

(١) إن هنا مكسورة حكاية لنص القرآن أى يصرح بهذا النص .

المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم[١] وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون فى خير ولا شر ؟ بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذاً[٢] ، وصاروا فى أعمالهم أفراداً ، لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكأنه* لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمه إليه وشيجة ؟

ما بال الأبناء يقتلون الآباء ، وما بال البنات يعققن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء ، وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء .

قبس من الإسلام أضاء الغرب كما تقول وضوؤه الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق ؟ وأهله فى ظلمات لا يبصرون ، أصحّ هذا فى عقل أو عُهد فى نقل ؟ ألم تر إلى الذين تذوّقوا من العلم وهم من أهل هذا الدين أوّل ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار ، وبعداء الأنظار ، وإلى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوّام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها ويرون العمل فيها[٣] عبثاً فى الدين والدنيا ،

(١) هو مضمون حديث مرفوع إلى النبى (ص) .

(٢) الفذ الواحد وأفذاذاً أى أفراداً .

* وكأن لم تجمعه معه صلة .

(٣) أى فى ضمن ما أرشدت إليه فى النظم والفنون والصناعات .

ويتفخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه فى ذلك قد هجر منكراً وترفع عن دنيئة ، فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلَق يستحى أن يظهر به بين الناس ، ومن غرّته نفسه بأنه على شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جِنة ، والعلم ظنة ، أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين ، على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم ، بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء فى الإيراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الإسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق فى فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الإسلام ومنصفو سائر الأمم ، فذلك هو الإسلام ، وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل ، مَن أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه ، نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه ، وقد جرب علاج الاجتماع الإنسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً ، ولا الأصم إعراضاً ، وغاية ما قيل فى الإيراد ،

أن أعطى الطبيبُ المريض * دواء فصح المريضُ وانقلب الطبيبُ بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرّع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته ، يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه ، وهو فى يأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدّل سنة الله فى شفاء أمثاله .

كلامنا اليوم فى الدين الإسلامى وحاله على ما بينا ، أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر إن شاء الله .

التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

بعد أن ثبتت نبوّته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا ، وأنه إنما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره ، والإيمان بما جاء به ، ونعنى بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ، ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة ، وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات ، وغير ذلك مما هو معروف .

* أعطى الطبيب إلى المريض .

(١) وفى المؤلف بوعده فوضع كتاب الإسلام والنصرانية وقد وصف هذا الكتاب أنه لا يستغنى عن قراءته مسلم فى هذا العصر ، بل قال أحد أولى البصيرة من المسلمين : إنه ينبغى قراءته فى كل سنة ولو مرة واحدة ، وإن قارئه ليجد فيه شرحاً لكثير من المسائل المجملة فى هذه الرسالة .

ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ماهو قطعي بظني ، وشرط صحة الاعتقاد ، أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين ، فإن ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر ، وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة (١) .

أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدّق بصحة روايتها ، وأما من لم يبلغه الخبر ، أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته وهو ليس من المتواتر ، فلا يطعن فى إيمانه عدم التصديق به . والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئاً (٢) وهو يعلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حدّث به أو قرره ، فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ،

---

(١) الواجب أن يحمل الخبر على معنى يتفق مع التنزيه الثابت بالنقل والعقل تدل عليه أساليب اللغة مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذى وضعه الناس لخلقه فهو كاصطلاحات العلوم والفنون ، فلا يقتضي أن يكون معناه فى وصف الله تعالى عين معناه فى وصف الخالق من كل وجه ، بل يكفى أن يكون مناسباً له ، فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه ليست من الأحوال والأعراض النفسية ، ويده وأصابعه ليست من الجوارح الجسمية ، وحلقه ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات الدنية ، وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية ، وهذا معنى قول السلف : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ومنه مسألة ، الرؤية الآتية ، وقاعدتهم فى ذلك ، أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل . وقد قال ابن تيمية كلمة فاصلة عندما تكلم عن نزول الله كل ليلة فقال : قل لى كيف هو ؟ أقل لك كيف نزل ، وهذه الكلمة نحل بها كل صفات الله سبحانه .

(٢) أى من أمر الدين الذى هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى .

ويلحق به من أهمل العلم* بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل[١] .

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها ، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقض شيئاً من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمناً حقًّا وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله[٢] فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة ، لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة ، والأصل فى ذلك ، أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل .

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام ، وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه ، الأولى : جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة ، والأخرى : جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء من الأولياء والصديقين .

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ، ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين

---

* ويلحق به من أهمل فى العلم .

(١) أكثر السنن المتواترة هى العملية كصفة الصلاة والحج ؛ وأما الأحاديث القولية المتواترة فقيل : إنها لا تبلغ أقصى جمع القلة قاله : السيد رشيد رضا .

(٢) يعنى أن التأويل بهذه الشروط لاينافى صحة الإسلام ، فلا يباح تكفير صاحبه إلا أنه لا يقتدى به فيه وهذا مذهب أهل السنة والجماعة .

لا مجال معه للتنازع ، فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة ، بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة ، أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا[١] وهو ما لا يمكننا معرفته وإن كنا نصدّق بوقوعه متى صح الخبر ، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافاً يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود* أو بحاسة أخرى ، فهو فى المعنى يرجع إلى قول خصومهم ، ولكن مُنى الإسلام بقوم يحبون الخلاف ، والله فوق ما يظنون .

أما الثانية : فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحاق الإسفراينى من أكابر أتباع** أبى الحسن الأشعرى وعلى ذلك المعتزلة إلا أبا الحسن البصرى فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة ، واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب[٢]

---

(١) الإدراك فى الحقيقة للروح وإنما الحواس آلات لها .

* بالبصر الغير المعهود .

** أصحاب أبى الحسن .

(٢) قال بعض المفسرين فى تفسير (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) إنه وزير لسليمان اسمه آصف بن برخيا فجاراهم المؤلف فى ذلك تنزلا ولكن هذا لم يثبت فى قرآن ولا حديث مرفوع وإنما هو من الإسرائيليات . وقال بعضهم : إنه سليمان نفسه ورجحه النيسابورى – وقال بعضهم إنه جبريل وبعضهم إنه ملك آخر .

وجملة القول ، أن إحضار العرش معجزة لنبى الله سليمان عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات .

كذلك ما قالوه فى مسألة الرزق عند مريم وأنه فاكهة الصيف فى الشتاء وعكسه لم يصح فيه حديث مرفوع ، فهو من الإسرائيليات كما بينته فى تفسير المنار ا هـ من تعليق السيد رشيد رحمه الله

فى خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها ، وقصة أصحاب الكهف .

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، وأوّلوا ما جاء فى الآيات ، أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها .

وأما ما احتج به المجوّزون من الآيات فلا دليل فيه ، لأن ما فى قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد إلا قليلا .

وأما قصة أهل الكهف فقد عدّها الله من آياته فى خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز ، فصار البحث* فى جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية ، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر .

وأما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية ، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور

* فبقى البحث .

الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أىّ كرامة كانت من أىّ ولى كان ، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم [١].

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام ، حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات، يتنافس فيها الأولياء، وتتفاخر فيها ،همم الأصفياء [٢] وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون .

---

(١) انتهى ما جاء بالطبعة الأولى نقلناه على حقيقته ، وممن أنكر الكرامات كذلك الحليمى من أكابر الأشعرية وأبو محمد بن أبى زيد المالكى فى آخرين . راجع ص ١١٠ من مقدمة ابن خلدون طبعة بيروت .

(٢) بل يزعمون أن هؤلاء الأصفياء ولا سيما الموتى المشهورين كالذين يسمونهم الأقطاب الأربعة المتصرفون فى شئون العالم كله ، وأنهم يقضون حاجات الذين يدعونهم من دون الله ، أو مع الله بالخوارق الممنوحة لهم من نفع وضر وغير ذلك (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) .

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ، وقد فسر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة .

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنّا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً. لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً ، قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ، قل : إنى لا أملك لكم ضرًّا ولا رشداً ، قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً. إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، قل : إن أدرى أقريب ما توعدون

أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » .

صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخسئ الشيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم .

تنبيه

وإنا نلفت أنظار القراء إلى أننا قد حافظنا فى نشر هذه الرسالة على النص الأصلى لها بغير أن نخرم منه حرفاً ، أو نغير كلمة ، كما تقضى بذلك الأمانة العلمية ، وأصول نشر الكتب القديمة ؟

أما ما أدخله مؤلفها الأستاذ الإمام على الرسالة من تنقيح أثناء إلقائها دروساً بالجامع الأزهر ، فقد وضعناه فى مكانه من الرسالة ، وأثبتنا الأصل المنقح فى الهوامش مرموزاً إليه بعلامة نجمة ٭

وأما ما زيد على هذه التنقيحات مما نقله السيد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام وهو يستمع إليه فى تدريس هذه الرسالة بالأزهر ، ونشره فيما كان يصدره من طبعات هذه الرسالة بعد الطبعة الأولى ، وما أضفناه نحن من عندنا من شرح بعض ألفاظ وهو قليل ، فقد جعلنا كل ذلك فى الهوامش بأرقام عددية مسلسلة .

وأما ما حذفه المؤلف من أصل الرسالة فقد أشرنا إليه بوضع خط تحته .